الـغـريـب

وقـصَـص اخــرى



نصوص عالمية

٢٣

دار ثقافة الاطفال



الغـــريب

وقصص اخــرى

للكاتب الاسبانيَ

بيدروانـطونيـوالاركـــون

ترجمَـــة

مــروان ابـراهيم صـــديق

الغريب وقصص اخرى
ترجمة مروان ابراهيم صديق
الطبعة العربية الاولى ١٩٩٠

الناشر وزارة الثقافة والاعلام دار ثقافة الاطفال
العراق ـ بغداد ـ بريد ٢٨ شباط ص. ب ٨٠٤١



نصوص عالمية

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام رئيس مجلس الادارة . فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة : فاروق يوسف

الغريب

وقصص اخرى

الطالع



١

لست أدري في أي يوم من أيام شهر اب من عام ١٨١٦ ، وصل الى أبواب المقر العام في غرناطة غجري رثّ الثياب ، قبيح الشكل يتجاوز عمره الستين عاماً ويعمل في جزّ الصوف . كان اسمه او ربما لقبه (أريديا) . جاء راكباً حماراً هزيلاً كئيباً كان سرجه الوحيد حبلاً مربوطاً في عنقه . ما ان نزل الغجري الى الارض حتىٰ صاح بصوت عالٍ «اريد رؤية القائد العام» .

أثار طلبه ضحك الحارس وشكوك الجنود قبل أن يصل الخبر الى السيد أيوخينيو بورتوكاريرو ، كونت مونيخو والقائد العام لحملة غرناطة القديمة . ولما كان هذا الرجل يحب المزاح وسمع الشيء الكثير عن الغجري (أيريديا) وعن طرافته ونكاته فقد أمر بأحضار الغجري .

دخل الغجري الى مكتب القائد العـام وتقدم خطـوتين الى الامـام وتراجع خطوة واحدة الى الوراء ثم ركع أمامه قائلاً :

ـ لتعش ماريا المقدسة وليعش سيادتكم .

ـ انهض ودعك من التملق وقل لي ما الذي تريده . اجاب الجنرال بجدية ظاهرة .

رسم اريديا الجدية على وجهه وقال :

ـ حسن ياسيّدي ، لقد جئت من أجل الالف ريال .

ـ اية الف ريال ؟

ـ تلك التي أعلنتم عنها مكافأة لمن يقدم معلومات عن (بارون)

ـ ماذا ! أكنت تعرفه ؟

ـ كلا ياسيّدي .

ـ إذن ...

ـ لقد عرفته ...

ـ كيف !

ـ المسألة سهلة . لقد بحثت عنه ، وشاهدته وها أنا قد جئتك بأخبار عنه واطلب مكافأتي .

ـ هل أنت متأكد انك رأيته ؟ سأل القبطان بأهتمام فاق كل شكوكه .

ضحك الغجري وأجاب :

ـ طبعاً ، سيقول سيادتكم عني ان هذا الغجري مثل غيره من المخادعين ويريد خداعي ، ولكن لن يسامحني الله اذا كنت اكذب . لقد رأيت بارون .

ـ ولكن ، أتعرف أهمية ماتقوله ؟ هل تعرف اني اطارد هذا الوحش منذ ثلاث سنوات . اطارد هذا اللص القاتل الذي لم يشاهده أحد . أتعرف انه يسرق كل يوم أحد المسافرين ثم يقتله لأنه يقول ان الأموات لاتتكلم وانها الطريقة الوحيدة التي لن يطاله بها القانون ؟ هل تعرف ان الالتقاء

بـ (بارون) يعني الالتقاء بالموت ؟
ضحك الغجري مرة اخرىٰ وقال :
ـ وهل تعرف ان مايستطيع عمله اي غجري ، لايستطيع اي شخص في العالم القيام به ؟ وهل يعرف احد حقيقة ضحكنا وبكائنا ؟ هل يعرف حضرتك كم هو مقدار دهائنا ؟ اقول لك ياسيدي القائد انني لم أرَ بارون فقط بل اني تحدثت معه .
ـ أين ؟
ـ في الطريق الى توزار .
ـ اعطني دليلاً على ذلك .
ـ اسمع ياسيّدي . قبل ثمانية ايام وقعت أنا وحماري في قبضة بعض اللصوص . أوثقوني جيداً وحملوني عبر بعض الوهاد حتىٰ وصلنا الى ميدان صغير حيث يعسكر اللصوص . وهناك دارت في رأسي الشكوك المرعبة من أن يكونوا أعضاء عصابة بارون .. وكنت اردّد مع نفسي في كل لحظة .. سيقتلوني لامحال .. اذاً قسم هذا اللص على ان العيون التي تراه لن ترىٰ شيئاً آخر بعد ذلك . وكنت في خضم تفكيري عندما تقدم نحوي أحد الرجال بأبهىٰ حلّة وضرب كتفي وابتسم قائلاً .
ـ ايها الصديق ، أنا بارون !
وكان سماع هذا الاسم والسقوط على ظهري شيئاً واحداً .
ضحك اللص وكنت قد نهضت في حينها وركعت أمامه وقلت له بكل الاصوات التي استطعت تقليدها :
ـ بارك الله فيك يابني ، ياملك الرجال ! من منا لايعرفك بأناقة الامراء هذه التي منحها الله لك ؟ ياآلهي دعني اعانقك يابني . كم كنت اتمنىٰ أن اقرأ لك طالعك واقبل يد الامبراطور هذه ، كماانني أيضاً من اتباعك ! هل تريد أن اعلمك كيف انني ابدل حميراً ميتة باخرىٰ حية ؟ هل تريد ان ابيع خيولك الضامرة على انها مهرات قوية ؟



ولم يستطع الكونت مونيخو ان يكتم ضحكته وقال له :
ـ وماذا قال لك بارون عن كل هذا ؟ ماذا فعل ؟
ـ مثلما فعلت أنت ياسيدي لقد ضحك ملء شدقيه .
ـ وأنت ؟
ـ أنا ياسيدي ، ضحكت كذلك لكن الدموع انسابت عبر لحيتي .
ـ استمر .
ـ وفي تلك اللحظة مدّ يده نحوي وقال لي .. ياصديقي أنت الرجل الوحيد الذكي وقع في قبضتي .لقد كان الجميع يتصرفون بطريقة تجعلني اتألم وكانوا يفعلون أشياء تخرجني عن طوري . أنت الوحيد الذي جعلني اضحك ولولم تكن هذه الدموع التي خرجت منك ..
ـ انها دموع الفرح .
ـ هذا مااعتقده . لتعرف انني اضحك لأول مرة منذ ستة اعوام أو ثمانية ! ولكنني لم ابكِ أيضاً .. وكنا نقضي على الجميع ، أليس كذلك يافتيان ؟
وما ان قال هذه الكلمات حتى أحاطتني غيمة من التراب بغمضة عين واخذت اصرخ .
ـ ياآلهي رحمتك .
ـ توقفوا ! صاح بارون ليس بعد لقد أردت ان أعرف فقط ماالذي سرقتموه من هذا الرجل .
ـ حماره فقط .
ـ والنقود ؟
ـ ثلاثة دورو وستة ريالات .
ـ اتركونا وحدنا إذن .
ابتعد الجميع .
ـ والان اقرأ لي طالعي . قال اللص وهو يمدّ لي يده .

اخذت يده ونظرت اليها لحظة من الزمن ثم انتبهت الى انني يجب ان اتكلم بجدية وقلت له :

ـ يابارون ، عاجلاً أم آجلاً ستموت مشنوقاً . اقول لك هذا حتىٰ لو قتلتني او تركتني حياً .

ـ أعرف هذا ـ أجابني اللص بكل هدوء ثم اضاف : قل لي متى . بدأت افكر .. ان هذا الرجل سيعفو عني وسأصل غداً الى غرناطة وسأشي به ويلقون القبض عليه بعد غد ثم يحاكمونه .

ـ قلت لي متىٰ ؟ـ أجبته بصوت عال ـ حسن سيكون ذلك في الشهر القادم .

ارتعب بارون وارتجفت أنا من الخوف وانتبهت الى ان حبي لقراءة المستقبل قد يؤدي بي الى الموت .

ـ حسن ، انظر اليّ ايها الغجري . اجاب بارون ببطء شديد . ستبقىٰ معي هنا واذا لم يشنقوني في غضون الشهر القادم سوف أشنقك انت كما شنقوا أبي أما اذا مت في أثناء هذه المدة فستكون حراً .

ـ أشكرك كثيراً . قلت له وأنا أشعر بالندم لانني حدّدت له مهلة قصيرة جداً .

وما إن قال (بارون) هذا حتىٰ قادني أعوانه الى احد الكهوف وسجنوني هناك في حين ركب هو حصانه ورحل .

قال القائد الكونت مونيخو :

ـ حسن ها أنا افهم ، لقد مات بارون وأصبحت حراً ولهذا فأنت تعرف ملامحه .

ـ بل العكس تماما ايها القائد ، لان بارون مايزال حياً يرزق ومن هنا يبدأ الجانب الاسود من قصتي .

٢

مرت ثمانية أيام لم اشاهد فيها (بارون) وحسب ماعرفت فـانه لم يرجع الى هناك منذ ذلك اليوم الذي قرأت له طالعه .لكن غيابه كما قال لي أحد الحراس لم يكن أمراً غريباً :

-لتعلم انه يذهب الى الجحيم بين آونة وآونة ولايعود حتى يروق له ذلك ، والمشكلة اننا لانعرف عنه أي شيء في غضون تلك الايـام التي يغيب فيها .

وبسبب توسلاتي وقراءتي الطالع لجميع اللصوص وتنبؤاتي لهم بأنهم لن يشنقوا وانهم سيعيشون شيخوخة هادئـة فقد استجـابوا لطلبي وأخذوا يخرجون بي اوقات العصر خارج الكهف بعد أن يوثقوني الى شجرة كانت هناك . اذ اني كنت أشعر بالاختناق داخل الكهف .

علماً ان الحراس كانوا على مقربة مني دائماً ،

وفي أحد هذه الايام وزهاء الساعة السابعة عصراً ، رجع اللصوص وهم يقتادون معهم فلاحاً يبلغ من العمر اربعين عاماً . كان بكاؤه يقطع نياط القلب . وكان يصيح :

ـ اعطوني نقودي ، آه لو عرفتم كم عملت لاحصل عليها ! لقد عملت بالحصاد صيفاً كاملاً بعيداً عن قريتي وعن زوجتي وأطفالي . لقد جمعتها بالعرق والحرمان .. وعندما هممت بالعودة لادفع ديوني .. ياآلهي كيف سافقد هذه النقود التي هي كنزي .. ارجعوا إليّ نقودي بحق السماء !

كانت الضحكة التي أطلقها أحد اللصوص هي الاجابة الوحيدة لتوسلاته . ارتجفت أنا رعباً لأننا نحن معشر الغجر لنا عوائل ايضاً . واخيراً قال أحد اللصوص :

ـ لاتكن مجنوناً ، من السخف ان تفكر بنقودك الآن ، عليك ان تهتم بأشياء اخرى اكثر اهمية .

ـ كيف ! قال الرجل الذي لم يفهم أنه يمكن ان يفقد شيئاً اهم من أن يترك اولاده من دون خبز .

ـ انك في قبضة بارون .

ـ بارون ..! لاأعرفه .. لم اسمع بحياتي هذا الاسم ! جئت من مكان بعيد ! أنا من مدينة اليكانتة وعملت حاصداً في اشبيليا .

ـ حسن ياصديقي بارون يعني الموت . فكل من يقع بقبضته يجب أن يموت . عليك أن تتلو صلاتك في دقيقتين وتكتب وصيتك في دقيقتين أخريين . هكذا سيكون لديك أربع دقائق . تحضروا .. صوبوا ..

ـ ساستغل هذه الدقائق .. اسمعوني بالله عليكم ..

ـ تكلم .

ـ لدي ستة اطفال وزوجة تعيسة ، اقصد ستكون أرملة مادمت

سأموت . اقرأ في عيونكم انكم أسوأ من الحيوانات المتوحشة . نعم اسوأ . لأن الحيوانات المتوحشة من النوع نفسه لا تأكل أبناء جنسها . عفواً ..لست أدري ما اقول .. ايها السادة ألا يوجد بينكم من هو أب ؟ ألا تعرفون ماذا يعني ستة اطفال سيمضون الشتاء القادم من دون خبز ؟ الا تعرفون معنىٰ ان تشاهد الام أطفالها يموتون جوعاً وهم يقولون«انا جائع ، انا بردان» ايها السادة ، أنا لا أريد حياتي إلا لأجلهم ، ماذا تعني لي حياتي ؟ انها سلسلة من عمل مرهق وحرمان ، ولكن عليّ ان اعيش لأجل أولادي .. اولادي ..!

تمرغ الفلاح على الارض وبدا وجهه كاولئك الذين كان الامبراطور الروماني نيرون يلقي بهم الى ساحة الاسود .

شعر اللصوص بالرحمة عليه وأخذ بعضهم ينظر الى بعض ويفكرون في شيء واحد إلى أن تجرأ احدهم وقال ماكان يفكر به .

ـ ماذا قلت ؟ سأل نائب رئيس العصابة الذي كان متأثراً هو الآخر بحالة الفلاح .

ـ أيها الرجال ان ماسنفعله لن يعرفه بارون ابداً ..

ـ ابداً ..ابداً . ردّد اللصوص .

ـ اذهب ايها الرجل الطيب ..قال احد اللصوص وهو يبكي . وعملت أنا اشارة سريعة للفلاح كي يهرب لكن الرجل نهض ببطء وطالب بنقوده التي سرقها اللصوص . وعندها صرخ أحدهم

ـ اتعتقد ان هذا قليل ؟ لن تحصل على نقودك ، هيا اذهب قبل أن ينفد صبرنا .

ابتعد الرجل وهو يبكي واختفىٰ عن انظارنا . امضىٰ اللصُوص نصف الساعة التالية وهم يقسمون فيما بينهم ان لايقولوا لبارون مافعلوه مع الرجل .

وفي هذه اللحظة ظهر بارون وهو يقود معه الفلاح ، ارتعب اللصوص



وتراجعوا الى الخلف .

ترجل بارون عن فرسه ببطء وتناول بندقيته وصوبها الى رفاقه قائلاً :

ـ أيها المجانين ، لست أدري لماذا لا اقتلكم كلكم ، هيا عجلوا وارجعوا نقود هذا الرجل .

اخرج اللصوص النقود واعطوها للرجل الذي ارتمىٰ عند قدم ذلك الشخص الطيب القلب الذي سيطر على اللصوص .. وعندها قال بارون .

ـ بفضل وصفك استطعت العثور على هؤلاء اللصوص .. لقد وفيت بوعدي ، خذ نقودك وامض من هنا .

عانق الفلاح اللص عدة مرات وابتعد فرحاً . لكنه ما ان ابتعد خمسين خطوة حتىٰ صاح عليه بارون .

رجع المسكين يحث الخطىٰ وقال :

ـ ماذا تأمر ياسيدي ؟ سأله وهو يأمل ان يقدم خدمة لهذا الشخص الذي أعاد السعادة لعائلته .

ـ أتعرف بارون ؟ سأله اللص .

ـ كلا لا أعرفه .

ـ أنت على خطأ اجاب اللص . أنا هو بارون . تسمّر الفلاح في مكانه بينما اطلق بارون رصاصتين من بندقيته على الرجل المسكين الذي سقط على الارض مضرجاً بدمائه وقال كلمتين فقط قبل أن يموت :

ـ اللعنة عليك .

في خضم ذلك الرعب الذي اجتاحني شعرت ان الشجرة التي قيدت اليها اهتزت قليلاً وارتخىٰ الحبل عن معصمي . وعرفت ان احدىٰ الرصاصتين استقرت في الشجرة وقطعت الحبل . تظاهرت بعدم حصول شيء وتحينت الفرصة للهرب . وفي هذه الاثناء قال بارون للصوص وهو يشير الى الفلاح :

ـ الان تستطيعون سرقته . انكم معتوهون ، مجانين ، كيف خطر على بالكم اطلاق سراح هذا الرجل . لقد راح يولول في الطريق ولولم اكن أنا الذي صادفته لكان قد التقى بأحد الجنود وقص عليه كل الحكاية ولكنّا الآن في السجن . أرأيتم نتائج السرقة من دون القتل ! والآن هيا ادفنوه .

وبينما كان اللصوص منهمكين يحفرون القبر كان بارون قد ولىٰ ظهره لي وأخذ يتناول طعامه ، انتهزت الفرصة وابتعدت شيئاً فيشئاً واختفيت في أول وهدة صادفتني كان الوقت ليلاً واستطعت الاحتماء بظلام الليل حتىٰ عثرت على حماري الذي كان يأكل العشب ، امتطيته ولم اتوقف حتىٰ وصلت الى هنا .

ولهذا ياسيِّدي حان الوقت لكي تعطيني الالف ريال لكي اعطيك أوصاف بارون الذي أخذ مني نقودي ..

ذكر الغجري أوصاف اللص وقبض المال من المقر العام وسط أفواه الرجال التي عقدتها الدهشة .

والآن علينا أن نعرف ما اذا كان طالع الغجري(اريديا) لبارون صحيحاً أم لا !!

٣

بعد خمسة عشر يوماً من ذلك المشهد الذي حكيناه وفي زهاء الساعة التاسعة صباحاً ، في أحد شوارع سان خوان دي ديوس ، اجتمع جمهور كبير من الناس حول بعض الجنود .كان على الجنود التحرك في الساعة التاسعة والنصف للبحث عن (بارون) الذي اكتشف مخبأه وعرفت أوصافه .

ازداد اهتمام الناس وهم يرون الجنود يودّعون عائلاتهم وأصدقاءهم قبل الرحيل لتلك المهمة الخطرة . لالقاء القبض على بارون الذي القىٰ الرعب في قلوب كل من كان في غرناطة .

وفي هذه الاثناء قال أحد الجنود لصديقه :

-يبدو اننا سنذهب من دون أن نشاهد العريف لوبث !

ـ غريب . فقد كان دائماً أول الحاضرين عندما كنا نخرج للبحث عن بارون اذ انه كان يكرهه كرهاً شديداً .

ـحسن ألا تعرفون ماحصل ؟ قال جندي ثالث اشترك في الحديث .

ـمرحباً ! هذا زميلنا الجديد .. كيف تسير امورك في فصيلنا ؟

ـجيدة جداً . أجاب الجندي .

كان هذا الاخير ، رجلاً شاحباً هزيلاً ذا هيئة محيرة لاتليق به بزّة الجندي .

ـ ماالذي كنت تقوله ؟ سأل الرجل الذي كان قد تحدث اولاً

ـ آه ، نعم ، لقد مات العريف لوبث . اجاب الجندي الشاحب .

ـمانويل .. ماالذي تقوله ؟ هذا غيرمعقول .. لقد شاهدته أنا نفسي هذا الصباح كما اشاهدك انت الان .

أجاب مانويل بحدّة :

ـلقد قتله بارون منذ نصف ساعة ..

ـبارون ؟ أين ؟

ـهنا ! في غرناطة ! لقد وجدوا جثة لوبث في احد شوارع غرناطة .

صمت الجميع وأخذ مانويل يصفرلحناً وطنياً . وقال أحد العرفاء .

ـلقد قتل منا (بارون) أحد عشرشخصاً في غضون ستة ايام ! لقد اقسم القضاء علينا كلنا . ولكن ماالذي يفعله هنا في غرناطة ؟ أليس علينا ان نبحث عنه في الجبال ؟

كفّ مانويل عن الصفير وقال بلا مبالاة

ـ لقد قالت احدىٰ العجائز التي شاهدت الجريمة ان بارون قال انه سيكون مسروراً لرؤيتنا .

ـ عجبا اي هدوء تمتلك وانت تتحدث عن بارون .

ـ حسن . أليس بارون رجلاً مثلنا . اجاب مانويل بهدوء . وفي هذه اللحظة اعطيت الاوامر للجنود بالانتظام في صفين وصادف أيضاً مرور



الغجري(اريديا) الذي توقف هو ايضاً مثلما فعل الجميع كي يشاهد الجنود .

إلا ان الذين كانوا واقفين بجانب مانويل ، الجندي الجديد ، لاحظوا انه ارتجف بقوة وتراجع الى الوراء قليلاً وكأنه اراد ان يختفي بين رفاقه الجنود . وفي اللحظة نفسها ، كان(اريديا) يمعن النظر في عينيّ الجندي مانويل ثم صاح صيحة عالية وقفز كما لو ان افعىً لدغته وأخذ يركض نحو شارع سان خيروينخو وفي تلك اللحظة رفع مانويل بندقيته وصوبها نحو الغجري لكن أحد الجنود كان اسرع منه في تغيير اتجاه البندقية .

ـ لقد جن مانويل ، لقد فقد عقله . تساءل الجميع . والتف الجنود والضباط والفلاحون حول مانويل عندما شاهدوه يحاول الهرب وأمسكوا به بقوّة وراحوا يمطرونه بوابل من الاسئلة . وفي تلك الاثناء استطاع المارة الامساك بالغجري(اريديا) عندما شاهدوه يجري كالمجنون وبعد أن سمعوا صوت الرصاص وظنوا انه قد ارتكب جريمة ما .

ـ خذوني الى المقر العام ، عليّ ان اتكلم مع الكونت . قال الغجري .

ـ اي كونت ! سنأخذك الى حيث الجنود وسيتكفلون بك .

ـ لايفرق عندي ، ولكن خذوا حذركم حتى لايقتلني بارون .

ـ أي بارون ؟ ماالذي يقوله هذا الرجل .

ـ تعالوا وسترون . قال الغجري ومشىٰ امام الجنود وأشار الى مانويل قائلاً ايها القبطان هذا هو بارون وانا الغجري الذي اعطى أوصافه قبل خمسة عشر يوماً الى الكونت مونيخو .

وأخذ الناس يصيحون ...

ـ بارون ! بارون وقع في الاسر ! لقد كان أحد الجنود هو بارون !

ـ لا اشك في هذا . قال القبطان وهو يقرأ الاوصاف التي نشرها المقر العام . اذن فقد كنا اغبياء فمن كان يخطر على باله ان يبحث عن رئيس العصابة بيننا ؟

وقال بارون وهو ينظر الى الغجري بعيني اسد جريح .

ـ يالي من مغفل ! لقد كان هذا هو الرجل الوحيد الذي عفوت عنه وأنا استحق مايجري لي .

وفي الاسبوع التالي شنقوا بارون وتحقق طالع الغجري . ولكن ياأصدقائي عليكم ان لاتصدقوا الطالع ولا الفأل .

المتفرنس



١

في عام ١٨٠٨ خيمت على مدينة(بادرون) الاسبانية ليلة حزينة . كانت السماء مغطاة بغيوم كثيفة ولم يكن بالامكان رؤية الشوارع ولا الساحات . كان كل شيء يبدو أسود .

وفي زهاء الساعة العاشرة من تلك الليلة المرعبة وبعد تلك الظروف الحزينة[٢] التي عمّت الوطن وأحدثت فيه تلك الكارثة ، حضر الى الساحة الكبرىٰ في تلك المدينة فريق من الرجال والنساء والأطفال وهم يلبسون ملابس سوداً أشد سواداً من سماء ذلك اليوم الكئيب ثم توجهوا نحو الصيدلية الموجودة في زاوية الشارع .

كان الصيدلي ويدعىٰ(غارثيا دي باريدس) رجلاً أعزبَ لايحب معاشرة الناس ولا الاختلاط بهم ، ولم تكن ابواب الصيدلية مفتوحة



منذ أن دقت أجراس الصلاة على الموتى او منذ الساعة الثامنة ليلاً .

قال احد الرجال بلهجة غالسية[٣] .

ـ ماذا سنفعل ؟

ـ لم يشاهدنا أحد .. قال الاخر

ـ لنفتح الباب عنوة ! اقترحت احدى السيدات .

ـ لنقتلهم ! ردّدت بقية الاصوات .

ـ سأتكفل انا بالصيدلي قال احد الصبيان .

ـ سنقتله كلنا !

ـ انه خائن !

ـ انه متفرنس .

ـ يقال ان هناك عشرين فرنسياً سيتناولون العشاء معه هذا اليوم ..

ـ هذا ما اعتقده ولكن كيف عرفوا انهم سيكونون بأمان الى هذا الحد الذي اجتمعوا فيه على هذه الشاكلة !

ـ لو كانوا في بيتي لرميت بهم في البئر !

ـ لقد ذبحت زوجتي بالامس احدهم !

ـ وأنا .. قال القس .. خنقت بالامس ضابطين عندما أضرمت النار في السجن الذي كنت محتجزاً فيه .

ـ كل هذا والصيدلي المعتوه يحميهم !

ـ لقد شاهدته بالامس وهو يتنزه مع بعض هؤلاء القتلة !

من كان يفكر ان الصيدلي(غارثيا باريدا) يقوم بكل هذه الاعمال وهو الوطني المتحمّس حتى قبل مدة قصيرة .

ـ عجيب ألم يكن هو الذي كان يدفعنا ويحركنا لمحاربة الغزاة .

ـ وبالمقابل ، فمنذ أن جاءوا انضمّ الى صفوفهم ..

ـ وهاهو يدعو عدداً منهم لتناول العشاء معه .

ـ اسمعوا انهم يهتفون عاش الامبراطور .

ـ عليكم بالصبر ـ قال القس ـ فما زال الوقت مبكراً .

ـ لندعهم يثملون . اقترحت احدىٰ العجائز . وبعد ذلك ندخل . علينا أن لاندع أي واحد على قيد الحياة .

ـ اطلب قصاصاً خاصاً للصيدلي !

ـ سنفعل به ماشئتم . ان شخصاً مثله لهو أشد كرها من الفرنسيين ، ان الفرنسي يضرب ويهين بلداً اجنبياً لكن(المتفرنس) يبيع شرفه ووطنه . الفرنسي يرتكب الجرائم لكن الآخر يقتل اخوانه .

---

(١) يقصد الكاتب هنا الشخص الذي أخذ عادات الفرنسيين او اصبح مواليا لهم . المترجم .

(٢) اشارة الى مدة احتلال الجنود الفرنسيين لأسبانيا .

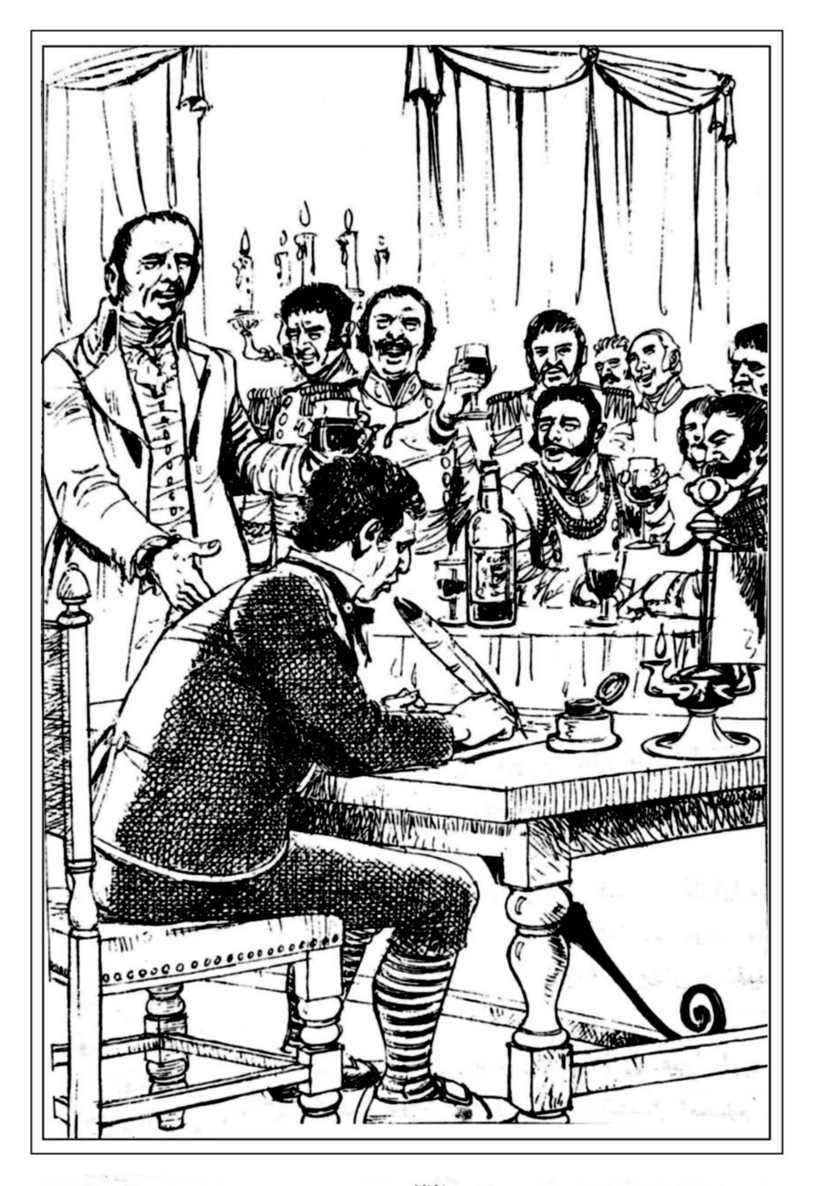
(٣) في اسبانيا هناك اربع لهجات والغاليسية هي اللهجة التي يتكلم بها ابناء المناطق القريبة من البرتغال .. اوماتدعىٰ غاليثيا .

٢

في الوقت الذي كان هذا المشهد يجري عند باب الصيدلي ، كان(غارثيا) وضيوفه يحتفلون بوليمتهم فرحين مسرورين من دون ان يعلموا ماذا يحدث في الخارج .

كان عددهم عشرين فرنسياً . كانوا ضباطاً ورقباء . وغارثيا يبلغ من العمر خمسة واربعين عاماً ، طويل القامة ، شاحب الوجه يبدو كالمومياء . كانت عيناه غائرتين سوداوين كأنهما بحيرتان مخفيتان وسط الجبال .

بدأ الفرنسيون ، وهم مبتهجون ويدخنون ويأكلون بقص أحداث اليوم الثاني من مايس التي وقعت في مدريد[١] ويتحدث أحدهم عن معركة الاهرامات[٢] وعن إعدام لويس السادس عشر[٣] .



كان غارثيا يشرب الخمر معهم ويتحدث مثلما يفعل الجميع أو ربما اكثر منهم . وكان قد ابدىٰ ولاء رائعا للفرنسيين حتى انهم عانقوه اكثر من مرة وانشدوا معه نشيدهم الوطني .

قال الصيدلي :

ـ ايها السادة ، ان الحرب التي نخوضها نحن الاسبان هي حرب حمقاء وليس لها معنىٰ . لقد جئتم حضراتكم لمساعدتنا ، لتحسين عاداتنا ، لقد جئتم لتجلبوا لنا الحضارة الحقيقية والحرية الصحيحة .

ايها السادة عاش نابليون منقذ الشعوب .

ـ عافاك ، عافاك . قال أحد الفرنسيين وفي لحظة من تلك اللحظات ظهرت على وجه الصيدلي علامات غم شديدة لم يستطع تفسيرها بالكلمات لكنه أخفىٰ هذا الشعور بسرعة وعاد لمدحهم من جديد .

شرب نخبهم وقال :

ـ لقد قتل أحد أجدادي ، البربري ، شمشون الجبار ، هرقل ، مئتي فرنسي في يوم واحد . اعتقد ان ذلك حدث في إيطاليا . ولكنكم ترون انه لم يكن موالياً لفرنسا مثلي .

توقف الصيدلي لحظة من الزمن وحاول البعض الردّ عليه لكنه عاد وحيّاهم مرة اخرىٰ واستمر في حديثه :

ـ تحية لكم ايها السادة وتبّاً لجدّي لأنه كان حيواناً . أنا متأكد انه دخل النار . عاش نابليون بونابرت .

ـ عاش . أجاب البقية برضاء تام .

في هذه اللحظة سمعوا الضجّة التي كانت موجودة في الشارع او بالاحرىٰ التي كانت عند باب الصيدلية .

ـ هل سمعتم ؟ تساءل الفرنسيون . ابتسم غارثيا وقال :

- لقد جاءوا لقتلي !
- من ؟
- ابناء قرية باردون .
- لماذا ؟
- لأنني موالٍ لكم ! فهم يحيطون بيتي منذ أيام عدة ولكن ماذا يهمنا نحن ؟ لنستمر باحتفالنا .
- نعم ، لنستمر . قال أحد الضيوف . نحن هنا لندافع عنكم .
- عاش نابليون . ليمت فرناندو[1] انتظر(غارثيا) حتىٰ اكملوا حديثهم وقال بنبرة حزينة :
- ثيلودونيو .!
أطل الصبي الذي كان يعمل عنده من باب صغير بوجه شاحب من دون أن يجرؤ على التقدم الى الداخل .
- ثيلودونيو ! احضر لي ورقة وقلماً .
عاد الصبي بما طلبه الصيدلي
- اجلس . امره الصيدلي . والان اكتب ماسأمليه عليك . خط خطاً في منتصف الصفحة واكتب في الجهة اليمنىٰ ديون مدفوعة وفي الجهة اليسرىٰ ديون آجلة .
- سيدي . تلعثم الصبي . هناك من يهتف في الباب«يسقط الصيدلي ليمت الصيدلي» وهم يريدون الدخول !
- اسكت ودعهم وشأنهم ! اكتب مااقوله لك . ضحك الفرنسيون وهم يشاهدون الصيدلي يهتم بحساباته في الوقت الذي تجمهر الناس حول صيدليته يرومون قتله . رفع ثيلودونيو رأسه ثم أخذ القلم وانتظر ماسيمليه عليه الصيدلي .
- حسن ايها السادة . قال غارثيا وهو يوجه كلامه الى ضيوفه لنختصر وليمتنا بشرب نخب أخير ولكن اريد ان اسأل القبطان ثم

اسألكم كل بدوره«قل لي ايها القبطان كم اسبانياً قتلت منذ ان وطأت قدماك أرضنا ؟»
ـ عافاك ، فكرة رائعة ! قال أحدهم .
ـ أنا .. قال القبطان وهو يشعر بالزهو . قتلت زهاء عشرة أو أحد عشر اسبانيا .
ـ صاح الصيدلي بعصبية واضحة .
ـ اكتب ياثيلودونيو في الجهة اليمنىٰ أحد عشر . وردّد الصبي مع نفسه :
ـ ديون مدفوعة ، أحد عشر .
ـ تماما . وانت ياسيد خوليو .
ـ انا ، قتلت ستة .
ـ وانت ايها القومندان .
ـ انا ،.. عشرون .
ـ وانا ثمانية .
وانا .. اربعة عشر .
ـ وانا .. لم اقتل احداً .
ـ أنا لست ادري .. لقد كنت اطلق النار على غير هدف .. أجاب الجميع كل حسب دوره . كان الصبي يدوّن هذه الارقام في الجهة اليمنىٰ وهو يرتجف خوفاً . واستمر(غارثيا) في كلامه .
ـ والآن أيها القبطان ، ايها السادة ، كم اسبانياً ستقتلون حتىٰ نهاية الحرب ، ولنفترض انها ستدوم ثلاث سنوات اخرىٰ ؟
ـ آه .. اجاب القبطان .. كيف استطيع حساب هذا الامر ؟
ـ احسب هذا ارجوك .
ـ لنقل أحد عشر .
ـ اكتب ، أحد عشر في الجهة اليسرىٰ . قال غارثيا للصبي وردد

ثيلودونيو مع نفسه .
ـ ديون آجلة ، أحد عشر .
ـ وانت ؟ سأل الصيدلي الجندي الاخر وهو يتبع التسلسل الذي اتبعه اول الامر نفسه .
ـ خمسة عشر
ـ عشرون
ـ مئة
ـ الف
ـ دوّن عشرة لكل واحد ياثيلودونيو . دمدم الصيدلي بسخرية والان اجمع هذه الاعداد .

أخذ الصبي يعد الارقام وهو مرتعب ثم قال بعد ان استعمل اصابع يده لعدّ الارقام .

ـ ديون مدفوعة مائتان وخمسة وثمانون وآجلة مائتان .
ـ هذا يعني ان هناك ٢٨٥ قتيلاً و ٢٠٠ شخص محكوم بالاعدام . المجموع ٤٨٥ ضحية !

قال هذه العبارة بصوت حزين كأنه صادر من باطن القبور مما جعل الفرنسيين ينظرون اليه برعب لكنه استمر في كلامه .

ـ نحن ابطال ! لقد شربنا مايقارب ستين قنينة خمر ، أي اننا تقاسمنا الخمر بشكل متساو في مابينا ، ثلاثة آلتار لكل واحد منا . اكرر نحن ابطال !

وفي تلك اللحظة سمع صوت تكسر الباب الخارجي وبدأ الصبي بالتلعثم .

ـ سيدخلون !
ـ كم هي الساعة الآن ؟ سأل الصيدلي بهدوء .
ـانها الساعة الواحدة . ولكن ألا تسمع انهم سيدخلون ؟ اتركهم !

لقد أزفت الساعة ! ـ الساعة ..أية ساعة ! ردّد الفرنسيون وهم يحاولون الوقوف على أرجلهم عبثاً .

ـ ليدخلوا ! ليدخلوا .. قالوا وهم يحاولون اخراج سيوفهم ، ليدخل الرعاع .. سنستقبلهم .

وفي هذه اللحظة ، سمعت اصوات الاحذية الثقيلة وهي تطأ ارضية الصيدلية الخشبية وامتزجت تلك الاصوات مع صرخات الجمهور وهو يهتف .

ـ ليمت«المتفرنس»

---

(١) اشارة الى قيام الفرنسيين باعدام مجموعة من المواطنين الاسبان .

(٢) معركة الاهرامات وهي المعركة التي انتصر فيها نابليون على المماليك في مصر عام ١٧٩٨ .

(٣) لويس السادس عشر ملك فرنسا ، نصب في سنة ١٧٧٤ وعزل واعدم سنة ١٧٩٣ .



٣

نهض غارثيا باريدس مثل الزنبرك عندما سمع تلك الضجة ..
اتكأ على الطاولة لكي يتجنب السقوط على كرسيّه . جال بعينيه وهو يشعر بسعادة وابتسم ابتسامة المنتصر . وبعد ذلك قال وهو يشعر بالموت يدبّ فيه هذه الكلمات على نحو متقطع ..
ـ ايها الفرنسيون ! لو وجد اي واحد منكم أو ربما كلكم الفرصة المناسبة للأنتقام من موت ٢٨٥ مواطنا وانقاد حياة ٢٠٠ آخرين ، لو ضحيتم بأرواحكم لانزال القصاص بالجلادين الذين قتلوا هؤلاء وانقاد البقية من الرفاق لكي نضيفهم وندخلهم الى الجيش البطل الذي يحارب من أجل الاستقلال الوطني ، ألا تضحون بحياتكم من اجل هذا ؟ هل كنتم تترددّون في معانقة عمود المعبد كما فعل



شمشون الجبار[1] والموت مع اعدائكم في الوقت نفسه ؟
- ماالذي يقوله هذا ؟ تساءل الفرنسيون
- سيدي لقد دخلوا الى الصالة ! قال الصبي
- ليدخلوا .. صاح غارثيا باريدس ..افتح لهم أبواب الصالة . ليأتوا كلهم ويشاهدوا كيف يموت نسل الجنود الشجعان !!

حاول الجنود النهوض من كراسيِّهم لمواجهة الاسبان الغاصبين إلا انهم وجدوا انفسهم عاجزين عن التحرك من مقاعدهم وتحريك أصابعهم لأشهار سيوفهم ..

اجتمع زهاء خمسين رجلاً وامرأة وصبيا مسلحين بالهراوات والخناجر والمسدسات وهم يهتفون ..
- الموت للجميع .
لكن غارثيا صاح
- توقفوا !

وعندما سمعوا تلك الصرخة وشاهدوا تصرف الصيدلي وصمت الفرنسيين شعروا برعشة خوف تسري في أجسادهم . كان الصمت مخيفـا ..
- لاداع لرفع هذه الخناجر . لقد فعلت اكثر مما يمكن أن تفعلوه كلكم من أجل الاستقلال . لقد تصنعت اني موالٍ للفرنسيين .. وها انتم .. ترون .. عشرون .. ضابطاً من الغزاة .. لاتلمسوهم .. فهم متسّممون ..!

ارتفعت أصوات الاعجاب والرعب من صدور الاسبان ثم تقدموا خطوة نحو الضيوف ووجدوا ان القسم الاكبر منهم كان قد مات وسقطت رؤوسهم على المائدة .

بينما قيض البعض الاخر على مقابض سيوفهم التي لم تشهر ابداً . كانوا يحتضرون ببطء .

ـ عاش غارثيا باريدس . هتف الاسبان وأحاطوا به .
ـ ثيلودونيو ـ دمدم الصيدلي لقد استعملنا كل السموم ، عليك أن تطلب وجبة جديدة .. قال هذا وسقط على ركبتيه . وفي هذه اللحظة عرف الاسبان ان الصيدلي كان قد تسمم هو ايضا . كان يشرب معهم لكي لايجلب الشك اليهم .

جلست النسوة على الارض واحتضنت البطل الذي كان يحتضر في حين جلب الرجال الشموع التي كانت على المائدة واحاطوا بها جسد الصيدلي البطل .

وبينما أضاء نور الشموع وجه الصيدلي . انحسرت الاضواء من المائدة ولم يبق هناك سوىٰ اشباح تحتضر من الغزاة .

كان وجه غارثيا يضيء فرحاً وتعلو وجهه ابتسامة النصر كلما سمع صوت فرنسي يسقط على الارض .

واخيراً مات (غارثيا) وسط اخوانه ووسط بكاء النسوة . لقد بكىٰ الجميع من أجل غارثيا البطل الذي ضحىٰ بنفسه من أجل الوطن .

---

(١) فرناندو السابع : ملك اسبانيا عزل من قبل جوزيف بونابارت واستعاد عرشه بفضل الشعب وبفضل انتصاره في حرب الاستقلال .

اشارة الى اسطورة شمشون الجبار الذي اسقط المعبد على أعدائه وقتل هو ايضا وهو يقول (عليّ وعلى اعدائي يارب) المترجم .

الغريب

١

«لاتكمن القوة في طرد العدو من الارض فقط ، بل في القدرة على ترويض غضبنا»

دعونا ياأصدقاء نسمع الحكاية التالية التي سمعتها من أحد الاصدقاء .

-صباح الخير ياجدي . قلت أنا

-ليحفظك الله . قال

- أراك وحيداً في هذه الطرقات .

-نعم ، لقد جئت لتوّي من مناجم (ليناريس) حيث كنت اعمل هناك . وانا ذاهب الآن الى (كادور) لرؤية عائلتي . وأنت ؟

- أنا ذاهب الى آلمريا وقد سبقت العربة قليلاً كي استمتع بمناظر الجبال

الجميلة في هذا الشهر . ولكن ألم تكن تصلي عندما وصلت أنا .. ارجوك استمر وسأقرأ أنا في هذه الاثناء

ـ هل الكتاب هو مجموعة قصص .. انت تستطيع مشاهدة القصص في كل مكان .. من قال لك اني كنت أصلي ؟

ـ لقد شاهدتك تخلع قبعتك وتصلي !

ـ حسن ، كنت أصلي . فكل واحد منا مايقصّه للرب

ـ هذا صحيح

ـ هل ستمشي كثيراً ؟

ـ انا ؟ سأمشي حتىٰ تقاطع الطريق ..

ـ لنمش معاً إذن

ـ بكل سرور . يبدو ان هذا الوادي جميل لننزل اليه .

وما ان بد أنا المسير حتىٰ أغلقت الكتاب ونزلنا على الطريق الى الوادي الجميل . مشينا صامتين بعض الوقت حتىٰ توقف عامل المنجم وقال :

ـ هنا !

ثم رفع قبّعته وبدأ بالصلاة .

كنا واقفين تحت شجرة تين مليئة بالاوراق تقع على حافة وادٍ عميق .

ـ قص عليّ ياجدي ما الذي حدث هنا ؟

ـ كيف ! هل تعرف ..؟ أجاب الجد بشيء من الريبة .

ـ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أن شخصاً ما مات هنا . وانه مات ميتة شنيعة .

ـ انك على حق . ولكن من قال لك هذا ..؟

ـ قالتها صلواتك

ـ هذا صحيح ، لهذا كنت اصلي ..

نظرت بأمعان الى تعابير وجه الرجل وعرفت انه كان دائما رجلاً نبيلاً .

ـ اجلس هنا ياصديقي ، قلت ، وأنا اقدم له لفافة تبغ .

ـشكرا . حسن . قال الرجل العجوز وهو يجلس الى جانبي قبل خمسة واربعين عاماً وفي صباح مشابه لهذا الصباح ، مررت انا من هذا المكان وفي مثل هذه الساعة تقريبا ..

ـخمسة واربعون عاماً ! رددت انا

ولما رآني لم اقل شيئا اكثر من هذا ، اشعل لفافة تبغه واستمر في الحديث ..

ـ ... كنت قد قدمت ذلك اليوم من(خيركال) وأنا أحمل معي بعض الحبوب على ظهر حماري . وعندما وصلت الى هذا المكان التقيت بجنديين اسبانيين يقود ان سجيناً بولنديا معهما وكان ذلك في عهد وجود الفرنسيين هنا .

ـلقد فهمت .. انك تتحدث عن حرب الاستقلال .

ـكيف عرفت ؟ انك حتىٰ لم تكن قد ولدت بعد .

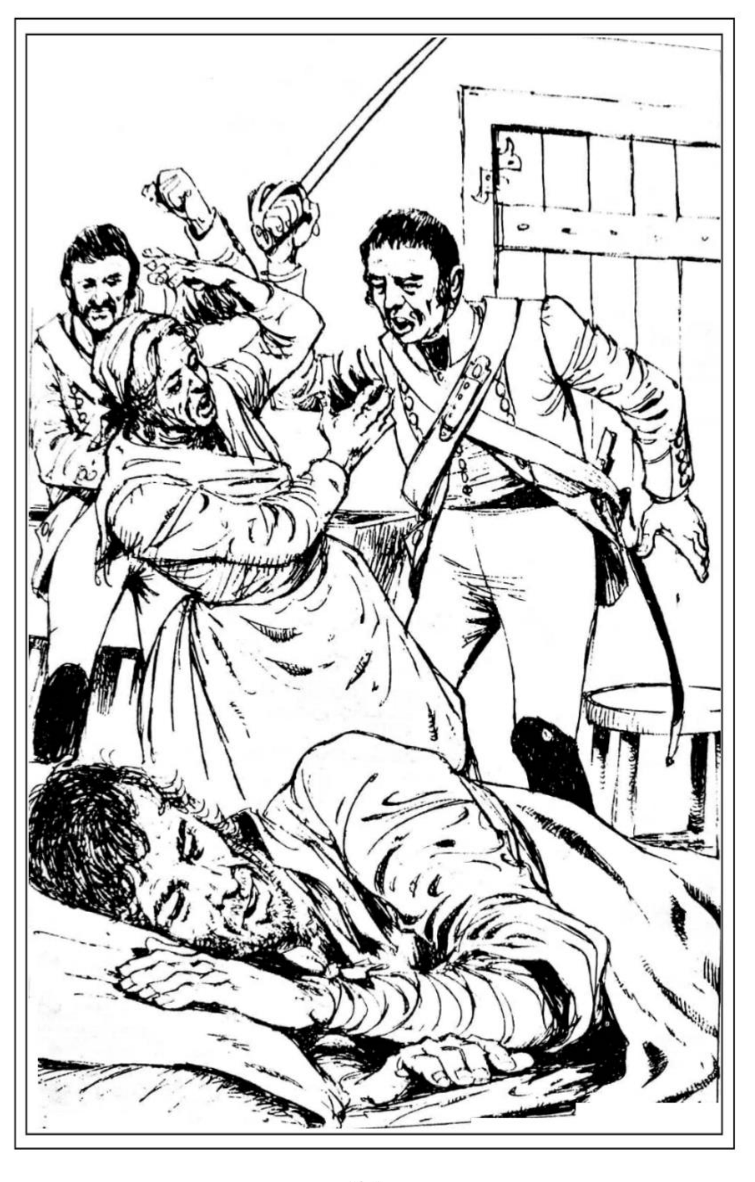
ـكلا .

ـ آه ، طبعاً ، فهو مكتوب هنا في كتابك هذا الذي تقرأه . ولكن ليس كل مايجري في الحروب يكتب .. لنكمل قصتنا . كان ذلك البولندي يعمل في خدمة نابليون[1] إلا انه مرض عندما كان الفرنسيون يتراجعون الى الخلف ولم يستطع الذهاب معهم لشدة مرضه . وفي ذلك الوقت قامت احدىٰ العجائز الاسبان بايوائه من دون ان تعرف انه كان من الاعداء ، فعلت هذا من باب الشفقة والانسانية . وصادف ان مر الجنديان الاسبانيان من ذلك المكان وكانا متوجهين الى فضيلهما عندما دخلا الى بيت العجوز لشرب الماء . وهناك شاهدا البولندي مرتمياً على الفراش وهو يعاني من الحمىٰ الثلاثية[2]

قال أحدهما ؛

ـ سنأخذه الى رئيسنا وسنحصل على ترقية من جراء ذلك ، كما انه سيعدم غداً .

كان(ايوا) البولندي يعاني من تلك الحمىٰ منذ ستة اشهر مما



تركته ضعيف البنية هزيلاً لايقوىٰ على الحراك .
بكت المرأة العجوز وتوسّلت وقالت ان الغريب لايستطيع الوقوف على قدميه وانه سيقع لامحالة .. لكن كل ماتلقته من الجنديين كان اللكمات والرفسات لقلة وطنيتها ..
أخرجا البولندي بالقوة ضد ارادة العجوز وبكائها .. كما انهما انهالا عليه بالشتائم والضرب .. ولكي لاأطيل الحديث اقول لقد مشىٰ ذلك المسكين نصف العاري والجائع خمسة فراسخ[٢] حافياً والمرض ينشب فيه والحمىٰ تأكله ..
- وكيف تحمل ؟
- لم يتحمل
- ولكن كيف مشىٰ خمسة فراسخ
- بضربات الحراب
- استمر ياجدي ..
- كنت قد جئت الى ذلك المكان كما هي عادتي في اختصار الطريق حينما شاهدتهم في ذلك الطريق . توقفت في هذا المكان لأشاهد المنظر المرعب وانا اتصنع اشعال لفافة تبغ .. كان(ايوا) يلهث كالكلب المسعور حاسر الرأس أصفر كالميت .. وقال باسبانية ركيكة - أنا يريد يموت ! اقتلوا أنا بالله عليكم !
ضحك الجنديان من كلامه وشتماه . لكنه سقط على الارض . وتنفست الصعداء لأني اعتقدت انه مات وتخلص من ذلك العذاب . لكنه سرعان مانهض بعد ان طعنه احد الجنديين في كتفه بحربته .. إلا ان البولندي أسرع نحو حافة الوادي يريد القاء نفسه .. إلا انهما قيّداه ومنعاه من قتل نفسه لانهما كانا يريدان الوصول به الى المقر العام والحصول على الترقية . وفي هذه اللحظة شاهداني وقالا لي :

ـ اركب الحمار معه .

اطعتهما من دون ان اجادلهما وانا اعتقد اني اؤدي خدمة للغريب

ـ الى أين انت ذاهب ؟ سألاني عندما اقتربت منهما .

ـ أنا ذاهب الى(آلمريا) ولكن ماتفعلانه لايمت للانسانية بشيء

ـ دع المواعظ جانباً

ـ انه موالٍ للفرنسيين .

وقال الآخر :

ـ لو استمريت في الكلام فستلقى مالا تحمد لك عقباه .

قال هذا وضربني على صدري بكعب بندقيته .

كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي يضربني فيها شخص عدا أبي .

ـ لاغضب ! لاتزعج ! قال البولندي وهو يمسك بقدمي بعد أن سقط مرة اخرىٰ .

ـ انزل حمولتك من الحبوب .. أمرني الجنديان .

ـ لماذا ؟

ـ لكي يصعد هذا اليهودي عليه .

ـ هذه مسألة اخرىٰ سأقوم بها بطيب خاطر .

قلت هذا وانزلت الحمولة عن ظهر الحمار .

ـ كلا ، كلا ، كلا ، قال ايوا . أنت دع يقتلونني !

ـ ولكن لااريد أن يقتلوك . قلت هذا وأنا اشد على يديه .

ـ ولكن انا اريد . اقتل أنت أنا . ارجوك .

ـ اتريد أن اقتلك !

ـ نعم ، نعم ، أيها الرجل الطيب . أنا كثير اتألم !

امتلأت عيني بالدموع والتفت نحو الجنديين وقلت لهما بصوت قاس :

ـ أيها الاسبانيان ، يا اخوان ، إن من يكلمكما هو أسباني يحب وطنه مثلكما . . دعوني وحيداً مع هذا الرجل !
ـ ألم اقل لك انه موالٍ للفرنسيين قال أحدهما .
ـ انك حوذي الشيطان ، خذ حذرك مما تقوله .
ـ انتما من جنود الشيطان . . أجبتهما بالحدة نفسها أنا لاأخاف الموت انكما بلا قلب ولا رحمة . انكما رجلان قويان ومدججان بالسلاح ضد رجل اعزل يحتضر . لستما سوىٰ جبانين ، اعطياني واحدة من هذه البنادق وسأحارب ضدكما حتىٰ الموت . لو كان لديكما أطفال بعيدون عنكما ، لو انكما عرفتما ان هذا البولندي لايعرف حتىٰ ماذا يفعل هنا في اسبانيا لانه جنّد بالقوة لخدمة طموح الملوك لعفوتما عنه ، اعفوا عنه لانكما رجلان قبل ان تكونا اسبانيين . هذا الرجل هو اخوكما . ماالذي ستستفيدان من قتله ، ماالذي ستجنيه اسبانيا من موته ، انه رجل مريض لاحول له ولا قوة . لنحارب رجال نابليون وليكن ذلك في ساحة المعركة . لنعفُ عن الضعفاء لنكن كرماء مع المغلوب ..
ـ كفىٰ كلاماً مبهماً . قال الاكثر قسوة بين الاثنين والذي كان يجبر(ايوا) على المشي بوخزات حربته . وفي هذه اللحظة قال الجندي الآخر لصديقه بعد أن سمع كلامي وتأثر به .
ـ ماذا سنفعل ؟
ـ ذلك سهل . انظر .
وقبل ان يكون لدينا الوقت لكي نفكرَ فيما سيفعله ، اطلق رصاصة على رأس البولندي الذي سقط الى الارض ميتاً .
وقبل ان يغادر الجنديان أشبعاني ضرباً بكعبي بندقيتيهما . ثم قطع الجندي الذي أراد الحصول على الترقية ، اذن البولندي واحتفظ بها في حقيبته وأخذ ملابسه وسلسلة فضية فيها ايقونة

تحمل صورة سيدة ما كان البولندي يرتديها في عنقه .

قمت بدفن الرجل في هذا المكان حيث تقف أنت وعدت من حيث جئت لأنني شعرت بالمرض وكدت افقد حياتي من جراء ماأصابني من ذلك الحادث .

قلت أنا :

ـ ألم تشاهد ذلكما الرجلين بعد ذلك ؟ ألم تعرف ماذا كان اسماهما ؟

ـ كلا ، ولكن حسب الاوصاف التي اعطتني اياها العجوز التي اعتنت بالبولندي فأن الذي قتل البولندي كان اسمه ريساس .

عندما وصل العجوز الى هذا الحد كنا قد وصلنا الى مفترق الطريق فتصافحنا وودع بعضنا بعضاً ثم افترقنا .

---

(١) يقصد الكاتب نابليون الثالث(١٨٠٨ ـ ١٨٧٣) ابن لويس بونابرت .

(١) الحمى الثلاثية هي حمى تصيب الانسان مرة كل ثلاثة ايام .

(٢) الفرسخ يساوي ٥٥٧٢ مترا .

٢

بعد ثلاثة أيام من ذلك الحديث الذي جرىٰ بيني وبين عامل المنجم . ذهبت لتناول القهوة في احدىٰ المقاهي في(المريا) . كانت طاولتي قريبة من احدىٰ الطاولات التي جلس عليها كولونيل وقمندان متقاعدان . كانا يتحدثان بصوت عال واستطعت ان اسمع ماكان يدور بينهما على الرغم مني ولكنني انتهيت الى كلمة واحدة فقط جعلتني اركز كل انتباهي عليهما ..

- المسكين ريساس ..

- ريساس - قلت مع نفسي وأخذت اسمع وانا كلي آذان صاغية ... المسكين ريساس .. قال الكولونيل .. سجنه الفرنسيون عندما استولوا على(مالقا) وطافوا به من سجن الى سجن ومن مدينة الى

مدينة حتىٰ وصل الى السويد حيث كنت سجينا هناك . تعرفت عليه هناك لأنه اصبح صديقا لمساعدي خوان . وعندما قرر نابليون في ذلك الوقت ان يأخذ معه جميع السجناء الى روسيا الحقت ريساس بخدمتي .

ادركت بعد ذلك ان ريساس كان يتطير ويخاف حد الموت من بولندا وكان لايكف عن سؤالنا انا وخوان«هل علينا ان نمر بتلك الاراضي لكي نعبر الى روسيا ؟»

كان يرتجف أمام تلك الفكرة ويتصبّب عرقاً . وحتماً لم يكن تفكير ذلك الرجل سوياً إلا انه كان جندياً ممتازاً ومع ذلك فقد كنت متأكداً من ان شيئاً ما قد حصل له مع أحد البولنديين ولست أدري اين ، لعل ذلك في الحرب الاسبانية ،او ربما في أثناء تجواله الكثير ..

عندما وصلنا الى وارشو حيث توقفنا بضعة أيام ، مرض ريساس بسبب الفزع الذي انتابه منذ ان دخلنا الاراضي البولندية .



ولما كنت قد عاملته برقة ، لم أرد ان اتركه هناك وحيداً عندما صدرت لنا الاوامر بالتحرك ولهذا استطعت الحصول على اذن من القائد بأن يبقىٰ خوان معه ورعايته في وارشو .

لكن المفاجأة حصلت في اليوم الاول من تحركنا وبعد عدة ساعات فقط من مسيرنا ، اذ حضر خوان وقص عليّ ماحدث لريساس .واقول لك ان ماحدث كان شيئاً فريداً وغريباً لم يقع من قبل. اسمعني وسترىٰ ان هناك سبباً في اني لم انس تلك القصة منذ اثنين واربعين عاماً .

ـ كان خوان قد بحث عن مكان جيد لسكنه ووجد هذا المكان عند احدىٰ الارامل الفلاحات . كان لها ثلاث بنات كن يسألن طوال الوقت كل الاسبان السجناء اذا كانوا يعرفون شيئاً عن ابن لهن يدعىٰ(ايوا) ذهب الى الحرب في اسبانيا في عام ١٨٠٨ ولم يعد منذ ثلاث سنوات . ولما كان خوان من اولئك المتملقين فانه استطاع اقناع الام بان ابنها سيعود لامحالة من اسبانيا . وكانت مكافأة خوان هي اعطاءه السكن ووعدها بتمريض ريساس . وما ان وصلا الى بيت الارملة الطيبة حتىٰ سقط ريساس مرة اخرىٰ من شدة اعيائه وغاب عن الوعي . وماان أخذت الارملة في نزع ملابسه القذرة حتىٰ شاهدت الايقونة معلقة على صدر ريساس . وعندها شحب وجهها وصرخت بطريقة أرعبت خوان وقالت وهي تهز ريساس بقوة .

- ايوا ! ايوا !

لم يشعر ريساس بأي شيء لأنه كان غائباً عن الوعي بسبب الحمىٰ التي أصابته .

وفي هذه اللحظة عرفت الفتيات بالخبر واخذن الايقونة وقارنها بصورة امهن وعندها عرف خوان بأن الصورة والايقونة للشخص

الذي لم يكن سوىٰ امهن .

وبعد ان شاهدن خوان ، أخذن يسألنه هو لأن ريساس كان غائباً عن الوعي . طرحن عليه الاسئلة بلغة لم يفهمها إلا ان طريقة القاء الاسئلة والارشادات كانت تدل على مدىٰ غضبهن . وعندها هزّ خوان كتفه ليعلمهن انه لايعرف شيئاً عن الموضوع ولا من أين حصل ريساس على الايقونة ثم ابتسم بوجه اللبوات الاربع واقنعهن انه ليس مذنباً اذ لم يكن هو الذي حمل الايقونة وانه لم يتعرف علىٰ ريساس إلا منذ مدة قصيرة جداً .. وفي هذه اللحظة هجمت النساء على ريساس وقتلنه شر قتلة ومزقنه إرباً بأظافرهن .

والغريب اني لم أعرف حتىٰ الان كيف حصل ريساس على تلك الايقونة .

ـ اسمحا لي سألقي عليكما القصة .

تقدمت نحوهما وعرفتهما بنفسي وقصصت عليهما ماقصه عليّ عامل المنجم الطيب .

وعندما انتهيت من حكايتي قال القومندان :

ـ ان في هذا حكمة من الله . فلم يكن وجود ريساس هناك مصادفة غريبة .

عازف البوق



ا

- اعزف يادون باسيليو على البوق ولنرقص فالحرارة قليلة تحت هذه الاشجار ..

ـنعم .. نعم .. يادون باسيليو .. اعزف لنا على البوق !

- احضروا بوق(خواكين) الذي يتعلم عليه ليعزف عليه دون باسيليو !

- هل ستعزف يا دون باسيليو ؟

- كلا !

- لماذا ؟

- قلت كلا .

- لماذا ؟



- لأني لا أعرف العزف.

- كيف لاتعرف . . هل رأيتم ماذا يقول !

- أنه يريد أن نتوسّل اليه ..

- هيا نحن نعرف انك كنت موسيقيا في الجيش وانه ماكان لأحد ان يضاهيك في العزف .

- هيا يادون باسيليو كن رحيماً !

- حسن ، هذا صحيح . لقد كنت اعزف .. لقد كنت ماهراً في العزف كما تقولون الآن .. ولكن لقد أهديت بوقي لرجل موسيقي فقير ولم أعد أعزف على البوق منذ ذلك الوقت .

- ياللأسف .

- آه ، ولكن عليك أن تعزف هذا اليوم .

- فكل شيء مسموح به هذا اليوم ..

- تذكر انه عيد ميلادي .. ياجدي

- هيا ، هيا لقد جئنا بالبوق .

- نعم ، اعزف لنا .

- لنعزف(الفالس)

- كلا ، أبداً

- اعزف لنا رقصة وطنية .

- متأسف جداً ياأبنائي ، إذ ليس بأمكاني العزف

- لقد كنت لطيفاً دائماً ..

- ارجوك ياجدّي ، اتوسل اليك

- وأنا ايضاً .

- اتركوني بالله عليكم . قلت اني لن

- لماذا ؟

- لأني نسيت العزف ولأني اقسمت ان لاأعزف أبداً .

ـ ولمن اقسمت ؟

ـ قطعت العهد على نفسي أمام شخص توفي وأمام امكم المسكينة التي ماتت يابنتي .

تجهمت الوجوه وهي تسمع تلك الكلمات .

ـ آه لو تعرفون كم كلفني تعلم العزف على البوق .

ـ احك لنا القصة ياجدّي ! صاح الجميع .

قال دون باسيليو

ـ اسمعوا واحكموا بنفسكم اذا كنت قادراً على العزف ام لا .

قال هذا وجلس تحت احدىٰ الاشجار يحيط به الصغار .

ولنسمع الحكاية

٢

قبل ستة عشر عاماً كانت اسبانيا تشتعل بسبب الحرب الاهلية(١) انقسم الاسبان بين مؤيد ومعارض ، حارب البعض مع الملكة ايزابيل والآخر مع كارلوس ودخلوا في حرب لامثيل لها .

كان لدي صديق اسمه(رامون غوميث) . وكان ضابطاً في الفصيل نفسه الذي كنت اخدم فيه . والواقع اني لم اعرف شخصاً في مثل مهارته وفطنته . كنا قد درسنا معاً وتخرجنا معاً واقسمنا ان نموت معاً من أجل الوطن .. ولكن حصل ان ارتكب قائد الفصيل ظلماً لامبرر له ضد (رامون) وطعنه في شرفه ولما كان رامون لايتحمل الاهانة فانه قرر الهرب والالتحاق بالطرف الاخر .

ولم تفد توسلاتي ولا تهديداتي بأقناعه عن العدول عن فكرته



وقال انه سيستبدل الخوذة بالحرية(٢)

كنا في ذلك الوقت على مقربة ثلاثة فراسخ من العدو وكان الوقت ليلاً عندما صممّ(رامون) على الهرب بعد تلك الليلة الممطرة ، الباردة والحزينة وبعد تلك المعركة التي كنا قد خضناها معاً . وفي زهاء الساعة الثانية عشرة دخل رامون عليّ وايقظني من نومي وقال لي .

- باسيليو .. تمتم في اذني

- من ؟

- انه أنا ! وداعاً .

- اذاهب انت ؟

- نعم ، وداعاً .

صافحني وقال :

- اسمع ... اذا حدثت غداً معركة والتقينا فيها ..

- اعرف ، فنحن اصدقاء ..

- حسن ، سنتعانق ثم نتعارك بعد ذلك انا واثق من اني سأموت غداً ولكن اعتقد اني سأقاوم قليلاً حتىٰ اقتل ذلك الكولونيل الذي مرغ شرفي في الطين . أما انت ياباسيليو فلا تعرض نفسك للخطر .. فما المجد إلادخان

- وماذا عن الحياة ؟

- حسن ماتقول ، ستكون أنت قائداً عسكرياً . أما أنا فكل شيء قد انتهىٰ بالنسبة لي !

- يالها من أفكار حزينة . قلت أنا غداً سنعيش نحن الاثنين في المعركة .

- لنتفق اذن على موعد نلتقي فيه بعد ذلك

- أين ؟

- لنتفق على ان نلتقي في الساعة الواحدة ليلاً في باحة كنيسة سان

نيكولاس . الذي لا يحضر يعني انه مات . اتفقنا !

ـ اتفقنا

ـ اذن .. وداعاً

ـ وداعاً .

قلنا هذا وتعانقنا بحرارة . ثم اختفى تحت جنح الليل .

وكما توقعنا هاجمتنا القوات الاخرىٰ في الليلة التالية . كانت معركة دامية منذ الساعة الثالثة ظهراً حتىٰ مغيب الشمس . وفي حدود الساعة الخامسة هاجمتنا فصائل اخرىٰ ولكن بقيادة صديقي(رامون) هذه المرة ، إلا اننا استطعنا ان ننتصر بعد معركة ضارية . وهرب(رامون) ولكن ليس قبل ان يقتل الكولونيل كما وعد بذلك .

وفي غمرة فرحنا بأنتصارنا هجم علينا العدو مرة اخرىٰ واستطاع تطويقنا وأسرنا حيث قادونا الى الوادي حيث كان يفترض أن نعدم هناك .

---

(١) اشارة الى الحرب الاهلية التي نشبت سنة ١٨٣٣ بين الملكة ايزابيل وكارلوس بعد موت الملك فرناندو من اجل الاستيلاء على العرش ودامت الحرب حتىٰ سنة ١٨٣٩ .

(٢) يقصد انه سيلتحق بالمؤيدين لكارلوس .

٣

دقت الساعة الواحدة في تلك الليلة نفسها . ليلة موعدنا انا ورامون .

كنت في حينها مقيداً في السجن وسألت عن صديقي وقالوا لي :

- انه شجاع ! لقد قتل كولونيلاً . لكنه ربما قُتل في اللحظات الاخيرة من المعركة .

- كيف ! ولماذا تقول هذا !

- لأنه لم يعد الى المخيم ولم يعرف الذين كانوا تحت امرته أي شيء عنه .

لم يعرف أحد كم تألمت في تلك الليلة .

ولم يبق لدي سوى أمل واحد هو ان يكون رامون قد ذهب الى الكنيسة وانه قد يرجع الى المخيم قريبا ،

«أي ألم سيشعر به عندما لايراني هناك»

فكرت انا ـ سيعتقد اني مت مع اني سأكون كذلك بعد ساعات . اذ ان الاعداء سيعدمونني كما هي عادتهم وفي صباح اليوم التالي دخل احد الجنود عليّ وكان جميع رفاقي نائمين .

ـ الموت ! قلت وانا اشاهد القس .

ـ نعم . أجاب بفرح

ـ هل حان الوقت ؟

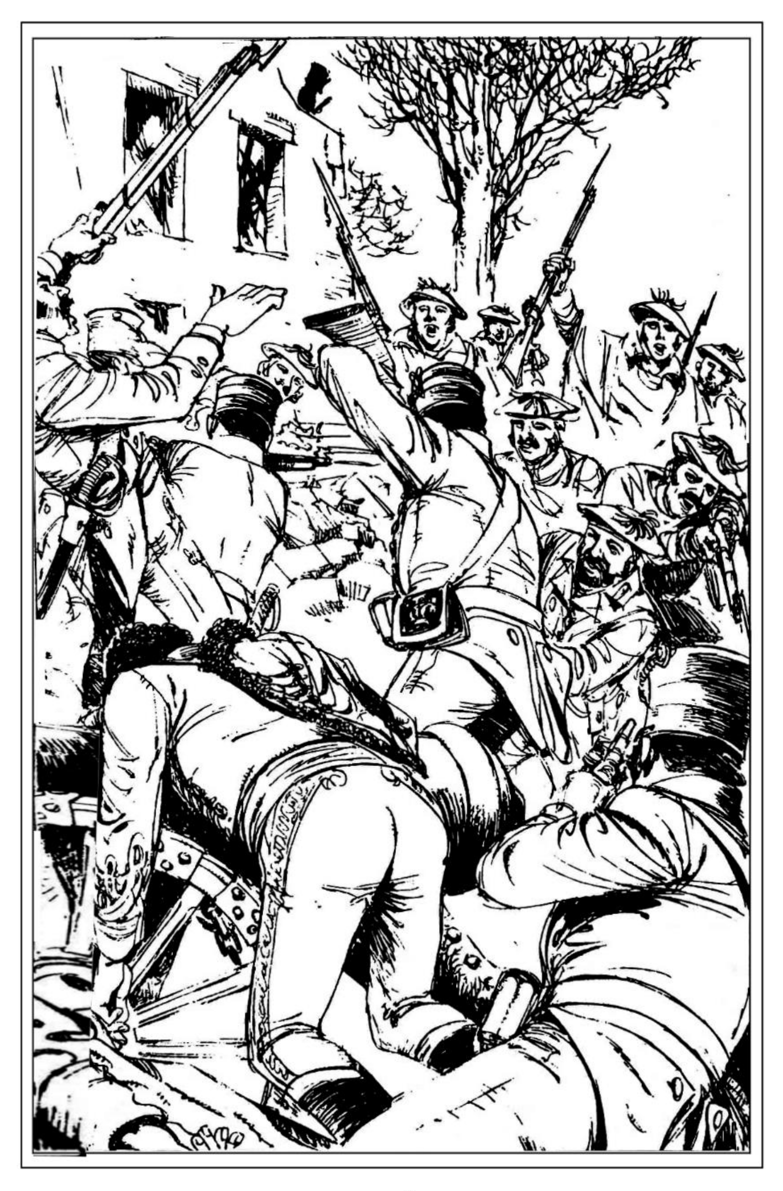
ـ كلا ، بل بعد ثلاث ساعات .

٤

كل من يشعر ان الموت قريب منه يبدأ بالتشبث بفكرة واحدة لايميد عنها .كانت تلك اللحظات مثل الكابوس أو الحمىٰ التي لازمتني .كنت أتشبث بأمل صغير وهو ان يكون رامون حياً ، او أن يكون ميتاً او ان يكون في السماء .. وسيطرت تلك الفكرة عليّ حتىٰ اني لم استطع ان افكر بأي شيء آخر في ساعات محنتي تلك .

خلعوا عني بدلتي وألبسوني غطاءاً للرأس ومضوا بي مع عشرين من أصدقائي نحو الموت .. ولكن .. لقد صفحوا عن شخص واحد فقط لانه كان موسيقيا . اذ كان (الكارليـين) محتاجـين الى شخص واحد يعزف البوق في المعارك .

ـ كنت موسيقيا اذن يادون باسيليا ؟ ونجوت بسبب هذا ؟



- سأل الجميع الجد .
- كلا ياابنائي .. أجاب الجد - لم اكن موسيقياً في حينها . كنا واقفين صفاً واحداً امام فرقة الاعدام وكنت أنا الحادي عشر في الصف أي انني كنت سأعدم بعد الشخص العاشر .. فكرت في حينها في زوجتي وابنتي ، فيك وفي امك يـاابنتي ! ولعلع الـرصـاص .. وكـان دوي الرصاص قد أصابني بالهلع ولما كنت معصوب العينين فلم اكن اشاهد اصدقائي وهم يسقطون وحاولت أن اعـدّ اصوات الـرصاص لكي اعرف قبل أن اموت متى ستنتهي حياتي في هذا العالم ..

ولكني فقدت العد بعند الدوي الثـالث أو الرابـع فقد كـانت تلك الاصوات تدوّي في قلبي ورأسي وكنت اشعر بها تنفجر هناك في الداخل .

واستمرت الاصوات ، ولكن فجأة توقف الدوي وقلت مع نفسي : «هذه هي»

وشعرت ان احداً أمسك بي من كتفي وهزني وقال شيئاً ما في اذني . وفي حينها سقطت على الارض . لم افكر في أي شيء آخر .. ولكني شعرت وكأني كنت في حلم . أعدمت .

وحلمت بعد ذلك بأني كنت ممدّداً على السرير في السجن . ورفعت يدي لارفع عصابة العين لكني لم أجد شيئاً بل كانت عيناي مفتوحتين على وسعهما وعندها عرفت انني فقدت البصر .

كلا .. لم افقد البصر فقد كان السجن مظلماً جداً . وعندما سمعت اصوات بعض الأجراس ارتجفت .. كانت اصوات أجراس الصلاة على الموتى . وقلت مع نفسي انها الساعة التاسعة ولكن من أي يوم ؟

وشعرت أن غيمة سوداء تقف الى جانبي بدت وكأنها رجل وقلت .
- والآخرون والثمانية عشر رجلاً البقية ؟
الكل اعدم
- وأنا ؟

كنت في حالة هذيان اردد اسماً واحداً فقط «رامون»

ـ ماذا تريد ؟ أجابني الظل الذي كان واقفا الى جانبي

ارتجفت

ـ ياآلهي . هل انا في العالم الآخر ؟

ـ كلا . قال الشخص

ـ رامون . هل أنت حي ؟

ـ نعم

ـ وأنا ؟

ـ انت كذلك .

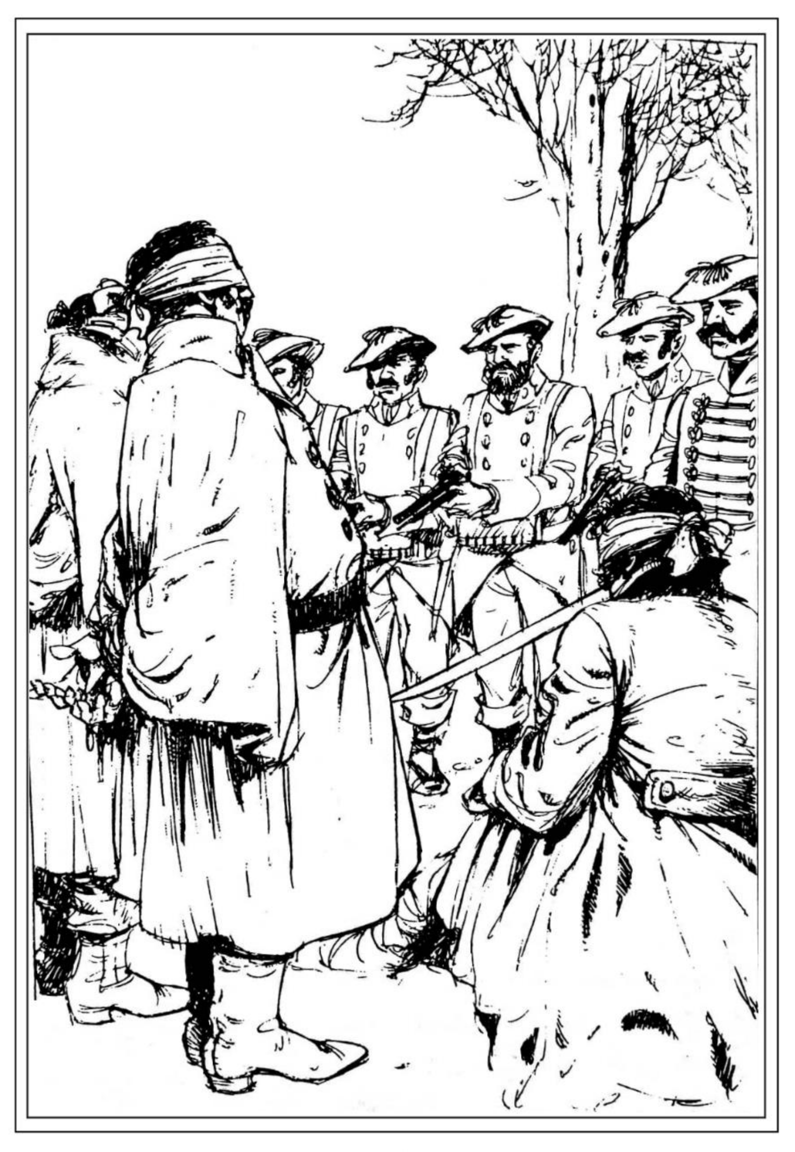
ـ أين أنا ؟ هل أنا في كنيسة سان خوان ؟ ألست سجيناً ؟ هل كان كل هذا حلماً ؟

ـ كلا ياباسيليو . لم تحلم . اسمع .

٥

كما تعرف ، بالامس قتلت الكولونيل في أثناء المعركة . لقد انتقمت لشرفي ، كنت مجنوناً من شدة الغضب واستمريت في القتل حتى لم يبق أحد هناك .. وعندما طلع القمر تذكرتك . وعندها توجهت نحو الكنيسة وأنا على أمل انتظارك هناك .

وفي زهاء الساعة العاشرة وكان موعدنا في الساعة الواحدة ، اغلقت عيني ونمت نوماً عميقاً من شدة التعب .. وفي الساعة الواحدة اطلقت صرخة عالية واستفقت .. حلمت انك مت .. نظرت حولي ولم اجدك ووجدت نفسي وحيداً .. ترى ما الذي حل بك ؟ دقت الساعة الثانية ثم الثالثة والرابعة .. كانت ليلة مرعبة ؟ ولم تظهر انت . وعند الفجر تيقنت انك مت . غادرت المكان وتوجهت الى هذه البلدة للبحث عن الثوار



وصلت هناك عندما أشرقت الشمس وكان الجميع يعتقد انني كنت قد مت في الليلة الماضية ولكنهم ماان شاهدوني حتىٰ عانقوني وعرفت في لحظتها انهم سيعدمون واحداً وعشرين سجينا . وقلت في نفسي ترى ايمكن ان يكون دون باسيليو احدهم ؟ وهكذا هرعت الى المكان ووجدت انهم شكلوا فرقة الاعدام وكانوا قد بدأوا بأطلاق الـرصاص امعنت النظر لكني لم اشاهد شيئا ، كان الالم يعصر رأسي والخوف قد اخذ مني مأخذاً .. ولكني تعرفت اخيرا عليك عندما لم يبق سوىٰ اثنين قبل اعدامك . ياآلهي ماذا افعل ؟

جننت واخذت اصرخ هرعت اليك وعانقتك وأخذت اصرخ .

- هذا لا ، لاتعدموا هذا ياجنرال !

سألني الجنرال الذي كان يعرفني

- لماذا ؟ اهو موسيقي ؟

كانت تلك الكلمات هي بمنزلة نور الشمس لرجل اعمىٰ فقد بصره منذ الولادة ،كانت الامل الذي التمعَ في عيني فجأة وتمسكت به .

- موسيقي !..نعم !نعم ! انه موسيقي . انه اعظم موسيقي!

كنت في ذلك الوقت قد أغمىٰ عليك .وسألني الجنرال :

- أية آلة يعزف عليها !

- الـ ..الـ ..الـ ..نعم انها ..هذه .. البوق ذات المفاتيح .

- هل نحتاج الى بوق ذات المفاتيح سأل الجنرال وهو يلتفت الى الجوق الموسيقي .

مرت خمس ثوان كأنها خمسة قرون .

- نعم ياسيّدي الجنرال نحتاج الى عازف بوق . وعندها سحبتك وجئت بك الى السجن ..



٦

وما ان سكت(رامون) حتىٰ نهضت وقلت والدموع تملأ عيني وانا اعانقه

- انا مدين لك بحياتي

- ليس الى هذا الحد . اجاب رامون

- كيف تقول هذا ؟

- هل تعرف العزف على البوق ؟

- كلا .

- اذن فأنت لست مدينا لي بحياتك ، إذ أقسمت ان اقدم حياتي مقابل هذا .

سكت وانا ارتجف خوفا .

ـ والموسيقىٰ ؟ سألت رامون ـ هل تعرف العزف ؟

ـ قليلاً ، قليلاً جداً .. اتذكـر اننا تعلمنـا شيئاً قليـلاً عندمـا كنا في المدرسة .

ـ قليلاً يعني لاشيء ! ستموت لامحالة وسأموت أنا بتهمة الخيـانة ، والكذب . وتصور انهم سيبدأون بالعزف في غضون خمسة عشر يوماً وعليك ان تكون بينهم !

ـ خمسة عشر يوماً !

ـ لااكثر ولا أقل . ولما كنت لاتعرف العزف على البـوق فسيعدمـوننا لامحالة .

ـ يعدمونك انت ! قلت . أنت بسببي ! بسببي أنا ، وأنا الذي ادين لك بحياتي . سأتعلم العزف في خمسة عشر يوماً ، ساتعلم عزف البوق .

ضحك رامون .

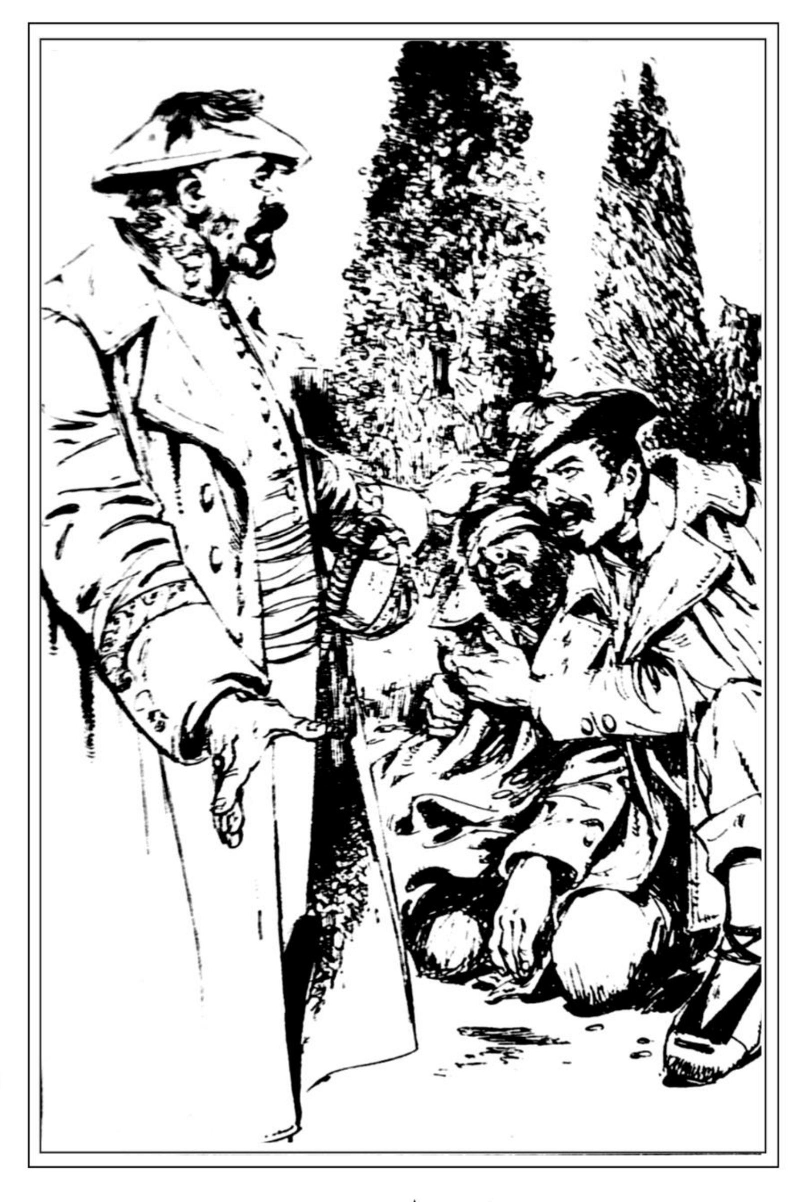
٧

ـ ماذا اقول لكم اكثر من هذا يا أبنائي ؟

في خمسة عشر يوماً ، وفي خمس عشرة ليلة لم اذق فيها طعم النوم لحظة واحدة .. تصوروا .. في خمسة عشر يوماً تعلمت فيها العزف (يالقوة الارادة)

اية أيام كانت تلك الايام !

كنا نخرج أنا ورامون الى الحقل وكنا نقضي ساعات طويلة مع أحد الموسيقيين الذي كان يأتي من مكان قريب ليعطيني دروساً في العزف . الهرب ..! اني اقرأ في عيونكم هذه الكلمة .. لم اكن اكثر من سجين وكانوا يراقبونني بشدة كما ان (رامون) لم يكن يريد الهرب من دوني . لم اكن أتحدث ولم اكن افكر ولم آكل .. كان كل همي هو تعلم العزف ..



كنت كالمجنون هدفي الوحيد هو البوق ذو المفاتيح ..

أردت التعلّم وتعلمت !

ولو كنت أخرس لنطقت

لو كنت كسيحاً لركضت

لو كنت اعمىً لأبصرت

لانني كنت اريد أن أتعلّم

الارادة هي القوة

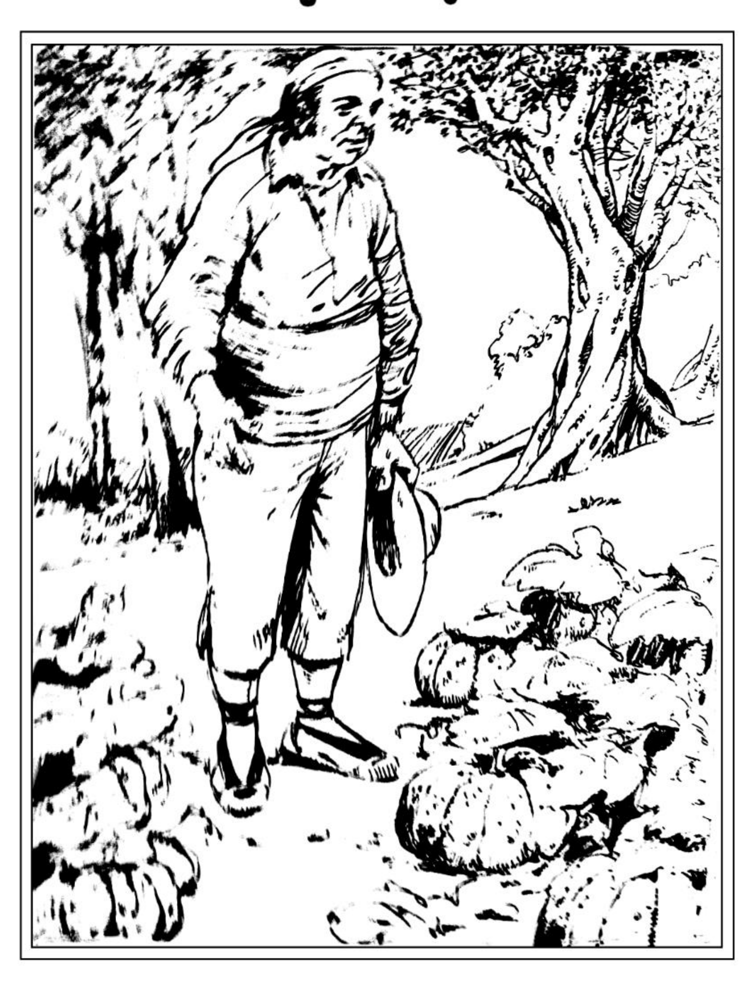
أردت ..وحصلت على مااردت

تعلموا أيها الاطفال هذه الكلمات

استطعت ايها الاطفال انقاذ حياتي وحياة رامون لكنني جننت إذ انني لم اترك البوق من يدي مدة ثلاث سنوات .

دو ـ ري ـ مي ـ فا ـ صو ـ لا ـ سي ـ كان هذا هو سماعي في غضون تلك السنوات . واقتصرت حياتي على النفخ ولاشيء غيره . ومع ذلك لم يتخل عني رامون .. ومع اني هاجرت الى فرنسا إلا أنني لم اترك العزف على البوق .. كان الناس والنقاد وأهل الفن يحتشدون لسماعي .. كان كل شيء رائعا .. عندما كنت اعزف كانت الالحان تخرج من البوق بشكل رائع ، كانت تصرخ ، وتبكي وتضحك ، وكنت استطيع أيضـا تقليد أصوات الطيور وبكاء البشر .. كانت رئتاي من حديد .. عشت على هذا النحو سنتين أخريين...وفي نهايتهما مات صديقي ..وعندها استعدت وعيي ، امام قبره ، فعندما أخذت البوق لاعزف عليه وجدت نفسي لا احسن العزف .

والآن هل ستطلبون مني أن أعزف لكي ترقصوا ؟



١

بدأت هذه القصة في(روتا) . وروتا هي قرية صغيرة جميلة تقع على خليج قادش الاسباني .

وبطل قصتنا هو بستاني فقير يسمىٰ العم(بوسكابياتس) على الرغم من ان اسمه الحقيقي لم يكن كذلك . ولكن قبل أن نبدأ ، أجل فمن الضروري ان اقول انه لايوجد انسان على هذه الارض يحب أرضه مثل فلاحي روتا . فهم حوّلوا ارضا صعبة الى بساتين مثمرة ومعطاء بفضل جهودهم . ونالت الطماطم والقرع من روتا شهرة كبيرة في المنطقة . والواقع ان الفلاح في هذه المنطقة كان يبذل جهداً كبيراً مع نباتاته ويتحدث معها بلطف وحنان ثم يسمّد النباتات ويرويها وينظفها من الحشرات ويحميها من الشمس والريح .

ومن دون ان نبالغ اقول اني سمعتهم يقولون ان احد فلاحي روتا كان يفحص نباتاته الجديدة اربعين مرة يومياً . وان شيوخ الفلاحين قد احدودبت ظهورهم ووصلت لحاهم الى الارض من كثرة ماانحنوا على نباتاتهم .



٢

حسن ، كان الفلاح بوسكابياتوس ينتمي الى هؤلاء الفلاحين .. كان عمره ستين عاماً أمضىٰ اربعين عاماً منها في المزرعة الجميلة التي تقع على الساحل .

في تلك السنة نبتت نباتات القرع بشكل كبير وكانت تشبه تلك الكرات التي تزين فيها الجسور . وكان العم يعرف هذه النباتات من شكلها ويعرف موعد نضجها ويقضي جل وقته يراقب القرع وخاصة الاربعين نبتة التي نضجت جيداً . وكان يقول لها :

- سرعان ماسننفصل عن بعضنا .

وفي أحد الايام قرّر ان الوقت قد حان لجني النباتات وخاصة تلك التي قضىٰ معها أجمل الاوقات . قرر هذا ونطق بالحكم .

ـ غداً سأقطع هذه النبتات الاربعين وسأحملها الى السوق في قادش . سعيد من سيأكلها .

قال هذا وغادر الى بيته بهدوء وقضىٰ الليل بمثل شوق الاب الـذي سيشهد زواج ابنته في اليوم التالي .

وتنهد وقال :

ـ اية حسرة على نباتاتي ! ولكن ماذا سأفعل بها سـوىٰ ان ابيعها في السوق ؟ لقد زرعتها لهذا الغرض . اما القـرعات الاصغـر فسيكون ربحها اقل .

ولكن تصوروا غضبه وخيبة أمله عنـدما ذهب في اليـوم التالي الى المزرعة .لقد سرقوا منه نباتات القرع الاربعين ..وقف عدة لحظات من دون ان يكف عن القول بصوت حزين !

ـ آه !لو عثرت على الذي فعل هذا ،لو عثرت على الذي فعل هذا .

لكن العم بدأ يفكر ويستنتج من ان حبيباته لايمكن ان تكون في(روتا) اذ من المستحيل بيع ذلك القرع مع البقية من دون ان ينكشف السارق وذلك لكبر حجمها .

ـ وكأني أراها موجودة في قادش ! وربما ان اللص قد سرقها في الساعة العاشرة أو التاسعة وهرب بهـا في الساعـة الثانيـة في زورق شحن . سأسافر الى قادش هذا الصباح في الزورق ولن يكون الامر صعباً للقبض على سارق جهود عملي !

وفي زهاء الساعة الثامنة غادر الفلاح متوجهاً الى قادش لكنه قبل ان يغادر مكث عشرين دقيقة في مكان الكارثة كأنه يعدّ نباتات القرع التي اختفت . وفي الساعة التاسعة كان القارب قد امتلأ بـالركـاب وشرع بالمسير ..

٣

كانت الساعة العاشرة والنصف صباحاً عندما وصل العم الى سوق الخضر في قادش وقال لرجل الشرطة الضجر الذي رافقه

ـ هذه هي نباتاتي . اقبض على هذا الرجل .

ـ تقبضون عليّ . أجاب البائع وهو ممتلىء بالغضب والدهشة . ان هذه القرعات هي ملكي لقد اشتريتها ..

ـ هذا ماستجيب عليه أمام رئيس البلدية . اجاب العم .

ـ كلا

ـ نعم

ـ انك لص

ـ انك غشاش

ـ تحدثوا بأدب ، ليس على الرجال شتم بعضهم بعضاً بهذه الطريقة .
قال الشرطي بهدوء .

كان الناس قد تجمهرت حولهما في تلك الاثناء وكان بينهما رئيس شرطة السوق ، وعندما علم بالحادث سأل البائع بلهجة آمرة .

ـ من اشتريت هذه القرعات ؟

ـ اشتريتها من العم فولانو من روتا . أجاب البائع .

ـ هذا هو الامر . صرخ العم . كان عليّ ان افكر بهذا قبل ذلك ! لقد سرق قرعنا لأن مزرعته فقيرة لاتنتج نباتاً جيداً .

ـ ولكن ، ولو اننا نعترف لك انهم سرقوا منك اربعين قرعة لكن من يستطيع ان يثبت لنا ان هذه القرعات هي لك ؟

ـ ماذا تقول . اجاب العم . لأنني اعرفها كما تعرف انت اولادك ، اذا كان لك اولاد ، ألا ترى اني ربيتها على يدي ؟ انظر ، هذه اسمها ريبولوندا وهذه كاجيكورديتا ، وتلك ، باريكونا وهذه كولوراديليا والاخرىٰ ، مانويلا لقد اطلقت على كل واحدة اسماً لانها مثل اولادي ..
ثم بدأ العم بالبكاء .

ـ كل هذا معروف . ولكن القانون لايكتفي ان تعرف انت قرعاتك . فمن الضروري ان تقتنع السلطات على ضوء الشواهد والادلة الدامغة هذا يعني اثباتات لاشكوك فيها . على كل حال .. ايها السادة ، لاتضحكوا من كلامي .. إذ أني اعمل في المحاماة .

ـ حسن سترى كيف اني اثبت للجميع ذلك ، من دون ان اتحرك من هنا . اثبت اني زرعت هذه القرعات في مزرعتي قال العم هذا امام دهشة الجميع والقىٰ بربطة كان يحملها في يده على الارض ثم جلس على ركبتيه وبدأ يفك عقدة الحزمة التي كان يحملها .

ازداد فضول الجميع بما فيهم البائع والمحامي .

ـ ما الذي ستخرجه من هذه الحزمة ؟ سأل الجميع .

وفي تلك اللحظة وصل فضولي آخر يروم مشاهدة مايجري وانضم الى المجموعة وما ان شاهده البائع حتىٰ قال له :

- اني سعيد لمشاهدتك ايها العم فولانـو . ان هذا الـرجل يقـول ان القرعات التي بعتني إياها الليلة البارحة هي مسروقة . أجب ..

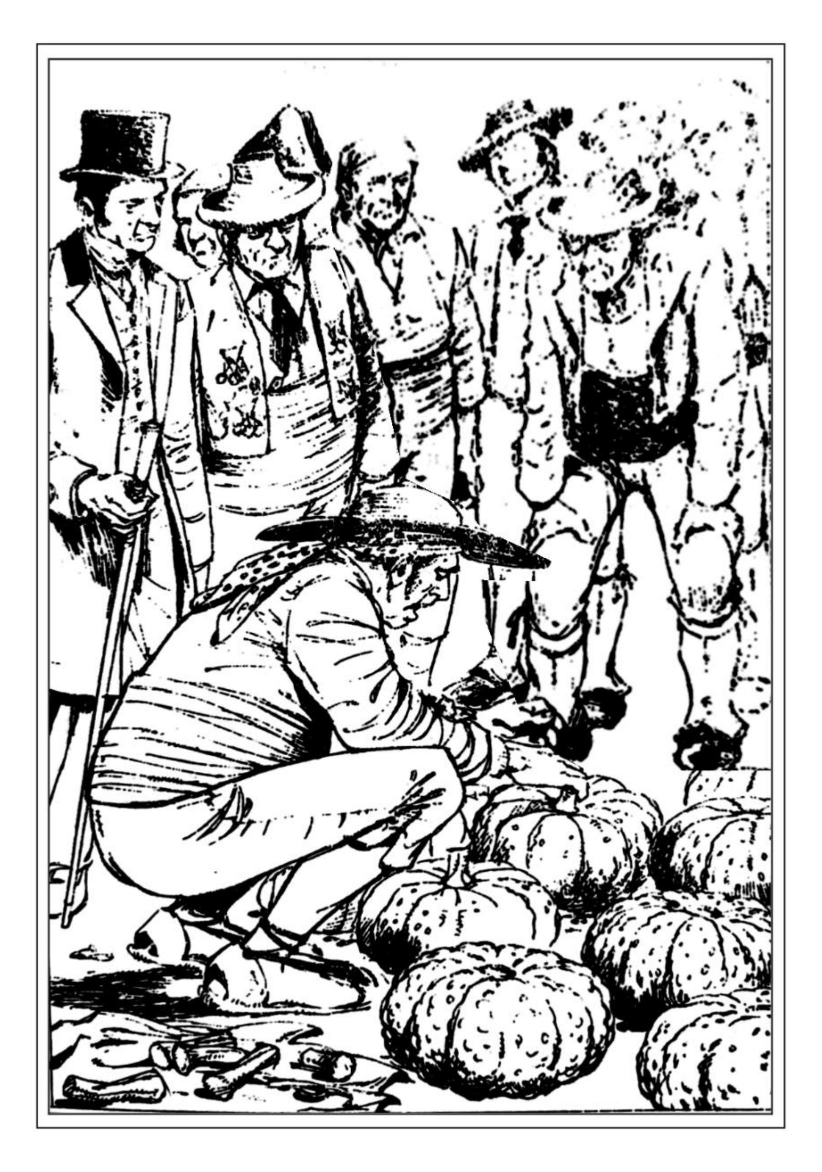
شحب وجه الرجل القادم وحاول أن يذهب لكن كثرة الذين تجمهروا هناك منعته من الحركة كما ان الحاكم أمره بالبقاء .

أما العم بوسكابياتس فقد واجه اللص قائلاً له :

- الآن سترىٰ مامعنىٰ الجيد .

أجاب فولانو ببرودة أعصاب قائلاً :

- عليك ان تحترس لما تقوله لانك ان فشلت في اثبات ماتزعم به سأرسلك الى السجن بتهمة الافتراء . ان هذه القرعات كانت لي ، لقد زرعتها في مزرعتي مثل بقية القرع الذي كنت ابيعه في قادش ولن تستطيع ان تثبت العكس .



- والآن سترى . قال هذا وهو مايزال يفتح عقدة الحزمة .
وبعد قليل اخرج الفلاح من حزمته عدداً كبيراً من سيقان نباتات القرع التي لم تزل ينزل منها عصيرها الابيض ثم جلس على الارض وهـو يضحك وتوجه بالكلام الى الحاكم وقال :

- ايها السادة ،ألم تدفعوا يوماً من الايام اشتراكاتكم ! ألم تشاهدوا دفتـر الوصـولات السميك الاخضر لـدىٰ المحصل وكيف انـه يقطع الوصولات لكم ويبقي جزءاً صغيراً من الوصل لديه لكي يستطيع ان يثبت بعد ذلك ان الوصولات التي لديكم هي حقيقية ام مزيفة .
قال الحاكم :

- ان ماتسمّية وصولات هو دفتر الصكوك .
- اذن هذا هو الشيء الـذي اجلبه معي . دفتـر الصكوك . الخـاص بمزرعتي أو الكعوب التي كانت ملتصقة بالقرع قبل ان تسرق وهكذا .. فان هذا الكعب هو خاص بهذه القرعة واعتقد ان لاأحـد منكم يشك بهذا ..وهذا الكعب هو للاخرىٰ ..

وبينما كان يجرب كعوب القرع كان المشاهدون ينظرون اليه بتعجب لان الكعوب كانت مطابقة تماما على القرعات التي كانت لدىٰ البائع .
- مستحيل . هذا الكعب لهذه القرعة وهذا لتلك وهذا لهذه ..
ضحك الجميع وهم يجربون بأنفسهم هذه الكعوب في حين راحت الدموع تنهمر من عيني الفلاح الطيب من شدّة فرحه بانتصاره .
وفي تلك الاثناء أخذت الشرطة تدفع اللص كما لو انها كانت قد فقدت الصبر في ايداعه السجن .

وطبعا كانت الشرطة سعيدة بهذا العمل ،ولكن قبل هذا ارجع اللص

فولانو مــاأخذه من البــائع من نقــود الى المزارع الطيب الــذي رجع الى(روتا) سعيداً وهو يقول :

ـ كم كانت جميلة نباتاتي في السوق .كان عليّ أن آخذ مانويلا لكي آكلها في هذه الليلة .

(الغريب) هي المجموعة القصصية التي كتبها الكاتب الاسباني بيدرو انطونيو آلاركون(١٨٣٣ ـ ١٨٩١) تحت عنوان قصص وطنية ، والتي تدور معظمها حول حرب الاستقلال التي حدثت في اسبانيا بين الاعوام ١٨٠٨ ـ ١٨١٣ عندما شنَّ أهالي مدريد حرباً ضد الغزاة الفرنسيين من أجل نيل الاستقلال .

والكتاب يضم خمس قصص تتناول موضوعاً واحداً تقريباً وهـو الحرب من أجل الاستقـلال . إلا انها تكشف لنـا ان الحس الوطني والارادة من أجل نيل الاستقلال من التبعية الأجنبية يبرز على أشدّه عندما يكون الوطن معرضا للخطر . ومع هذا فأن آلاركون لم ينس أن يشير الى الجوانب الانسانية التي يجب أن يتحلىٰ بها المنتصر كمـا في قصة (الغريب) والى التضحية والايثار كما في قصة (المتفرنس) والى قوة الارادة والعزم كما في قصة عازف البوق ...



رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٦٨٩ لسنة ١٩٩٠)

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

السعر ٥٠٠ فلساً